حريةٌ تحتَ السيطرةِ: في آلياتِ الإيهامِ النفسيِّ بالتحررِ

■ زكيه قرنفل[1]

ملخّص

تُتناولُ هذه المقالةُ الحرّيّةَ من منظورِ علمِ النّفسِ الاجتماعيِّ، عبرَ تحليلِ آليّاتِ الإيهامِ النّفسيِّ بالتحرُّرِ وكيفَ تُعيدُ الجماعةُ والسّلطةُ والثّقافةُ والتّكنولوجيا صياغةَ خياراتِ الفردِ. تبيّن من خلالِ أمثلةٍ وتجاربَ كلاسيكيّةٍ ومعاصرةٍ أنَّ الحرّيّةَ كما تُمارَسُ في السّياقِ النّيوليبراليِّ المعاصرِ هي في الغالبِ حرّيّةٌ موهومةٌ، تُستخدمُ بوصفها أداةً لإعادةِ إنتاجِ الامتثالِ والطّاعةِ وتآكلِ الوعيِ النّقديِّ. كما تناقشُ الانعكاساتُ النّفسيّةُ - الاجتماعيّةُ لهذه الظّاهرةِ، وكيفَ تُشرعنُ السّلطةُ وتُضعفُ قدرةَ الإنسانِ على المقاومةِ. في المقابلِ، تقترحُ المقالةُ جملةً من الاستراتيجيّاتِ لمقاومةِ هذا الإيهامِ وتعزيزِ حرّيّةٍ أصيلةٍ، تقومُ على التّربيةِ النّقديّةِ، واستعادةِ اللّغةِ، والتحالفِ بينَ الفردِ والجماعةِ، ومساءلةِ التّكنولوجيا، مضافًا إلى دورِ المؤسّساتِ الدينيّةِ والتحالفُ بين الشعوبِ.

الكلمات المفتاحية: الحريَّة، الإيهام بالحريَّـة، علم النفس الاجتماعي، الامتثال، الطاعة، الخوارزميّات، الوعي النقدي، الاستعمار.

١ - (كاتبة من سوريا)، ماجستير في الإدارة والتطوير التربوي – جامعة القديس يوسف.

المقدمةُ:

تُعَدُّ الحريةُ من أكثرِ المفاهيمِ إشكاليةً في العلومِ الاجتماعيةِ والإنسانيةِ؛ إذ ارتبطتْ تاريخيًا بسجالاتٍ فلسفيةٍ وسياسيةٍ ودينيةٍ متعددةٍ، كما اتخذتْ في العصرِ الحديثِ موقعًا مركزيًّا في الفكرِ الليبراليِّ الذي يجعلُ منها محورَ قيمةِ الفردِ، ومرجعًا في صياغةِ خياراته. غير أنّ البحوثَ في علمِ النفسِ الاجتماعيِّ تكشفُ أنّ هذه الصورةَ المثاليةَ للاستقلالِ الذاتيِّ لا تعكسُ حقيقةَ آليّاتِ اتخاذِ القرارِ؛ حيثُ يتبيّنُ أنّ ما يُسمّى «إرادةً حرّةً» يتشكّلُ ضمن بيئاتٍ اجتماعيةٍ مهيكلةٍ، وأن إدراكَ الفردِ وسلوكَه يتأثرانِ بدرجاتٍ متفاوتةٍ بعواملَ جماعيةٍ وثقافيةٍ وضغوطٍ معياريةٍ. فيتصوّرُ أنّه يختارُ بمحضِ إرادته، غيرَ خاضعٍ إلا لعقله ورغباته. يضعُ علمُ النفسِ الاجتماعيُّ هذا التصوّرَ تحتَ مجهرِه النقديِّ، كاشفًا أن ما يُسمّى «الإرادةَ الحرّةَ» يتكوّن بدرجةٍ كبيرةٍ في بيئةٍ اجتماعيةٍ مهيكلةٍ، وأن الوعيَ الفرديَّ يتأثرُ، غالبًا دون إدراكٍ صاحبه، بمجموعةٍ من العواملِ الثقافيةِ والجماعيةِ التي تنسجُها المحيطاتُ الاجتماعيةُ والرمزيةُ التي نحيا فيها[1]. فالإنسانُ لا يتحرّكُ في فراغٍ، بل يعيشُ داخلَ نسيجٍ من معاييرَ وأعرافٍ وضغوطٍ نفسيةٍ جماعيةٍ، تُعيدُ صياغةَ ما يظنّه «رغباته» و«قناعاته» وحتّى «حريتَه»[2].

مع نشوءِ علمِ النفسِ الاجتماعيِّ في مطلعِ القرنِ العشرينَ، لم تَعُدِ الحريةُ تُفهَمُ بوصفها غيابًا بسيطًا للقيودِ الخارجيةِ، بل باعتبارها قدرةً مشروطةً على اتخاذِ القرارِ ضمنَ شبكةٍ معقّدةٍ من التأثيراتِ الاجتماعيةِ. هذه الشبكةُ قد تكونُ مرئيةً، كضغطِ الجماعةِ المباشرِ، أو خفيةً، كالتطبيعِ

١ - مسعودة سعود وجمال تالي: "الهوية الاجتماعية والامتثال الاجتماعي: قراءة سوسيولوجية في المفهوم"، ص.ص٢٠٩-٢٢٠.

٢ - نوربرت إلياس: مجتمع الأفراد.

الثقـافيِّ والمعتقـداتِ الاجتماعيةِ المضمـرةِ[١]، أو حتّى مُبرمجةً تقنيًّا، كما هـو الحالُ في زمنِ الخوارزميّاتِ والمنصّاتِ الرقميّةِ. لقد أظهرتِ التجاربُ الكلاسيكيّةُ في علمِ النفسِ الاجتماعيِّ حدودَ ما يُسـمّى «الاختيارَ الحرَّ». ففي تجربةِ (سـولومون آش- Solomon Asch) الشهيرةِ عام ١٩٥١، خضعَ الأفرادُ لضغطِ الجماعةِ فأعطَوا إجاباتٍ خاطئةً واضحةً لمجرّدِ أنَّ الأغلبيّةَ قالتها، رغمَ أنَّ حواسَّهُم أكّدتِ العكسَ. وفي تجربةِ (ستانلي ميلغرام- Stanley Milgram) (١٩٦٣)، التـي بيَّنت قدرةَ السُّـلطةِ على توجيهِ الناسِ حتّى بمـا يُخالفُ مبادئَهُم[٢]. هـذه النتائجُ تُبيِّنُ أنَّ الإنسانَ لا يُقرِّرُ في عزلةٍ، بل يخضعُ لأنماطٍ من الامتثالِ والطاعةِ قد تجعلهُ يتصرّفُ ضدَّ مصلحتِه أو قيمِه المُعلَنة.

وتشـيرُ أبحاثٌ أحدثُ في علمِ الأعصابِ الاجتماعيِّ إلى أنَّ الامتثالَ لا يقتصرُ على السلوكِ الظاهريِّ، بل يمكنُ أن يُعيدَ تشـكيلَ الإدراكِ الحسّيِّ نفسـه. فقد بيّنت دراسةٌ (Berns) وآخرون عـام ٢٠٠٥ أنَّ مناطقَ في الدماغِ ترتبطُ بالإدراكِ البـصريِّ تتأثّرُ برأيِ الجماعةِ، ما يعني أنَّ الفردَ "يرى" أحيانًا ما يتوقّعُ أن تراهُ الجماعةُ[٣]. هذا يُوسِّعُ فهمَنا للحريةِ من كونِها قرارًا واعيًا إلى كونِها عمليةً متداخلةً مع محيطٍ اجتماعيٍّ يُشكِّلُ الإدراكَ ذاتَه.

في السياقاتِ الحديثةِ، تتضاعفُ هذه التأثيراتُ بفعلِ الأدواتِ الرقميّةِ والإعلاميّةِ. فالمنصّاتُ الرقميّةُ، مثل (فيسبوك) و(يوتيوب)، لا تُقدِّمُ جميعَ الخياراتِ الممكنةِ، بل تقومُ بتصفيةِ المحتوى وترتيبِه وَفقَ بياناتِ المستخدمِ السابقةِ، ما يخلُقُ ما يُعرَفُ بـ «فقاعاتِ التصفيةِ»؛ حيثُ يُعادُ إنتاجُ تفضيلاتِنا بدلَ توسيعِها[٤]. في مثلِ هذا السياقِ، تتحوّلُ حريةُ الاختيارِ إلى ممارسةٍ ضمنَ حدودٍ مرسومةٍ مُسبَقًا، ويُصبحُ القرارُ الفرديُّ أقربَ إلى استجابةٍ مُبرمجةٍ ضمنيًّا.

إن أهميّةُ المقاربةِ النفسـيّةِ - الاجتماعيّةِ تنبعُ من قدرتِها على كشـفِ هذه الآليّاتِ التي تعملُ

1 Moscovici, S., Social Influence and Social Change.

2 - Burger, J. M. (2009). Replicating Milgram: Would people still obey today? American Psychologist, P 1–11

3 - Berns GS, Chappelow J, Zink CF, Pagnoni G, Martin-Skurski ME, Richards J. Neurobiological correlates of social conformity and independence during mental rotation. P245-53.

4 - Chueca Del Cerro, C. The power of social networks and social media's filter bubble in shaping polarisation: an agent-based model. P 69.

«خلفَ الكواليسِ». فهي تدمجُ التحليلَ النفسيَّ للأفرادِ مع دراسةِ البنى الاجتماعيّة التي تُحدِّدُ مجالَ الفعلِ الممكنِ. مفاهيمُ مثل «التطبيعِ الاجتماعيِّ»، و«التأثيرِ المعياريِّ»، و«التأثيرِ المعلوماتيِّ»، و«انتشارِ المسؤوليةِ»، أضحت تُستَخدَمُ لتفسيرِ كيف يختارُ الأفرادُ أحيانًا ما يُناقضُ مصالحَهم المباشرةَ أو يرضخونَ لقُوى غيرِ مرئيّةٍ تُحيطُ بهم[1].

مِن هنا، فإنَّ الخطابَ السائدَ عن الحريّة، خصوصًا في النُّظُمِ الليبراليّةِ المعاصرةِ، يحتاجُ إلى مراجعةٍ نقديّةٍ. فالحريّةُ تُختزلُ في الغالبِ إلى استقلاليّةٍ فرديّةٍ وقدرةٍ على الاستهلاكِ أو التعبيرِ، في حينَ أنَّ هذه الاختياراتِ نفسَها مُحدَّدةٌ داخلَ منظومةٍ اقتصاديّةٍ - ثقافيّةٍ تُسوِّقُ بدائلَ متقاربةً وتمنحُها شرعيّةً عبرَ تكرارِها الجماعيِّ. بعبارةٍ أخرى، ما يبدو حريّةَ اختيارٍ قد يكونُ إعادةَ إنتاجٍ لخياراتٍ صُمِّمَتْ سلفًا لخدمةِ منظومةِ الإنتاجِ والاستهلاكِ المُهَيْمِنةِ.

وعليه، فإنَّ هذه المقالةَ تهدفُ إلى معالجةِ قضيّةِ حريّةِ الإرادةِ من منظورٍ نفسيٍّ - اجتماعيٍّ، عبرَ تحليلِ كيفَ تؤثِّرُ الجماعةُ والسُّلطةُ والبنيةُ الثقافيّةُ والأدواتُ التقنيّةُ في تكوينِ القراراتِ الفرديّةِ. وسيحاولُ البحثُ الإجابةَ عن أسئلةٍ رئيسة: ما حدودُ حريّةِ الإرادةِ في ضوءِ الامتثالِ والطاعةِ والانحيازاتِ الإدراكيّةِ؟ وما السُّبُلُ الممكنةُ لتعزيزِ وعيٍ نقديٍّ يُمكِّنُ الأفرادَ من مقاومةِ هذه التأثيراتِ واستعادةِ مساحةٍ أوسعَ من الفعلِ؟

منْهجيًّا، تعتمدُ المقالةُ على تحليلٍ نظريٍّ مدعومٍ بأمثلةٍ وتجاربَ من علمِ النفسِ الاجتماعيِّ، مضافًا إلى استحضارِ بعضِ التطبيقاتِ المعاصرةِ لهذه المفاهيمِ. ولا تسعى إلى نقاشِ البُعدِ اللاهوتيِّ أو الفلسفيِّ المُجرّدِ لحريّةِ الإرادةِ، بل تُركِّزُ على تحليلِ الظاهرةِ في سياقِها النفسيِّ–الاجتماعيِّ. وبذلكَ، تُحاولُ إعادةَ تعريفِ الحريّةِ لا بوصفها حالةً مثاليّةً من الاستقلالِ المُطلَقِ، بل عمليّةً ديناميكيّةً تتطلّبُ وعيًا بالشروطِ الاجتماعيّةِ والنفسيّةِ التي تُؤطِّرُ خياراتِنا. فالحريّةُ الحقيقيّةُ، بهذا المعنى، ليستْ مجرّدَ غيابِ القيودِ، بل القُدرةَ على إدراكِ القُوى ومساءلتها التي تعملُ بطرائقَ مرئيّةٍ أو خفيّةٍ لتكوينِ خياراتِنا وحدودِ وعْينا.

أولًا: الحرية في منظور علم النفس الاجتماعي

1 - Chueca Del Cerro, C. The power of social networks and social media's filter bubble in shaping polarisation: an agent-based model. P 69.

إنَّ مفهومَ الحُرِّيَّةِ من منظورِ علمِ النَّفْسِ الاجتِمَاعِيِّ، خبرةٌ إنسـانيَّةٌ تتكوَّن داخلَ بيئةٍ نفسـيَّةٍ واجتمَاعيَّـةٍ مُعقَّـدة. فحُرِّيَّةُ الفردِ في الاختيارِ والسُّـلوكِ ترتبطُ ارتباطًا وثيقًا بمـا يتعرَّضُ لهُ من أفكارٍ تُشـكِّلُ نظرَتَهُ عن ذاتِهِ وما يتوقَّعُهُ الآخرونَ منهُ، وكذلك بما تُرسِّخُهُ الثقافةُ المُحيطةُ بهِ من معاييرَ وقِيَمٍ[1]، وفي العقودِ الأخيرةِ، أصبحنا نتحدَّثُ عن تأثيرِ عالَمَيْنِ، العالمِ المادِّيِّ الحقيقيِّ والعالمِ الافتراضيِّ، أي إنَّ عواملَ هذا التأثيرِ قد تضاعفت. هنا تأتي وظيفةُ علمِ النفسِ لتكشفَ أنَّ خياراتِ الإنسانِ تُعادُ صياغتُها باستمرارٍ من خلالِ آليَّاتِ الامتثالِ والطاعةِ والتأثيرِ المعياريِّ والمعلومـاتيِّ[2]، وهـي آليَّاتٌ تُبيِّنُ كيفَ يتأثَّرُ إدراكُنا وسـلوكُنا بما هو شـائعٌ أو مُستحسَـنٌ أو مفروضٌ من سُلطةٍ عُليا.

١ - «دمية كلارك»

إنَّ اكتشـافَ ديناميَّـاتِ التأثيرِ الخفيِّ على خيـاراتِ ومُعتقَداتِ الفردِ، ليسَ اكتشـافًا حديثًا، ولطالما كانَ أمرًا اكتشـفَهُ واسـتفادَ منهُ أفراد ومجموعات ومؤسَّسـات عـبرَ التاريخِ، ولكن في أربعينيَّاتِ القرنِ الماضي، تمكَّنَ علمُ النفسِ في حقبةٍ ما يُسمَّى بالتجاربِ الكلاسيكيَّةِ من إثباتِ بالبيِّناتِ هشاشـةِ ما يُسـمَّى بالاختيارِ الحُرِّ، كتجربةِ «دميةِ كلارك» أو «اختبـارِ الدميةِ»، والتي تمثَّلت بسلسـلةٍ من التجـاربِ التي أجراها عالما النفسِ (كينيـث- Kenneth) و(مامي كلارك- Mamie Clark) لفهمِ الآثارِ النفسيَّةِ للتفرقةِ العنصريَّةِ على الأطفالِ الأمريكيينَ من أصلٍ أفريقيٍّ. اسـتخدمَ العالمانِ أربعَ دُمى متطابقةً في الشـكلِ والملابسِ، ولكنَّها تختلـفُ في اللونِ (اثنتانِ بيضاءُ واثنتانِ سوداءُ). طُلِبَ من الأطفالِ اختيارُ الدميةِ التي يُفضِّلونَها، والتي يعتقدونَ أنَّها تبدو جيِّدةً، والتي يعتقدونَ أنَّها قبيحةٌ، والتي تعودُ لهم. وقد كانت نتائجُ التجربةِ صادمةً.[3]

لاحظَ العالمانِ أنَّ غالبيَّةَ الأطفالِ السُّودِ فضَّلوا الدُّمى البيضاءَ وأعطَوها صفاتٍ إيجابيَّةً، بينما اعتبروا الدُّمى السَّـوداءَ قبيحةً وذاتَ صفاتٍ سلبيَّةٍ، ما بيَّنَ أنَّ التمييزَ العنصريَّ أدَّى إلى تكوينِ

١ - آندي حجازي: «الحرية الشخصية: فطرية أم متعلمة»، ص ٢٤-٢٦.

٢ - عبد السلام فاروق: "إشكالية مفهوم الحرية في العالم الافتراضي: دراسة تأطيرية في الفلسفة السياسية لعصر الرقمنة"، مجلة مساحات فكرية.

3 - Byrd, Diane, Yasmin R. Ceacal, Jansen Felton, Carmen Nicholson, David Martin Lakendra Rhaney, Nakia McCray, and Jaceline Young. "A Modern Doll Study: Self Concept." P186–202.

صورةٍ سلبيَّةٍ عن الذاتِ لدى الأطفالِ السُّود، ما دفعَهُم إلى تبنِّي مفاهيمَ عنصريَّةٍ عن عِرقِهم وأنفسِهم. لاحقًا أضحت هذه التجربةُ جزءًا مهمًّا من الأدلَّةِ في قضيَّةِ "براون ضد مجلسِ التعليمِ" عامَ ١٩٥٤، والتي قضت بعدمِ دستوريَّةِ الفصلِ العنصريِّ في المدارسِ العامَّةِ، حسبَ صندوقِ الدفاعِ القانونيِّ التابعِ للرابطةِ الوطنيَّةِ لتقدُّمِ الملوَّنينَ.

كانت تلكَ من التجاربِ التي أكَّدت أهمِّيَّةَ دورِ التنشئةِ الاجتماعيَّةِ في تكوينِ الهويَّةِ العرقيَّةِ، وفي النظرةِ إلى الذاتِ، وكيفَ أنَّ الإنسانَ يتأثَّرُ بشكلٍ غيرِ واعٍ بمعتقداتِ الآخرينَ، حتّى عن نفسِه، بطرائقَ غيرِ واعيةٍ.[١]

٢ - تجارب (آش) للامتثال

جاءت بعدها تجاربُ متعدِّدةٌ، من أبرزِها تجربةُ الطبيبِ النفسي الرائدِ في علم النفس الاجتماعي (سولومون آش - Solomon Asch) عن الامتثالِ الاجتماعيِّ عندَ الأفرادِ. فقد وُضِعَ مشاركٌ واحدٌ وسطَ مجموعةٍ من الأشخاصِ المتواطئينَ مع الباحثينَ، وطُلِبَ منهم الحكمُ على أطوالِ خطوطٍ واضحةٍ بصريًّا. ما حدثَ أنَّ معظمَ المشاركينَ، حينَ واجهوا "إجماعًا خاطئًا" من المجموعةِ، غيَّروا إجاباتِهم ليتوافقوا مع الجماعةِ، حتّى لو تعارضَ ذلكَ مع ما يرونَهُ بأعينِهم. النتيجةُ أظهرت أنَّ حوالي ثُلثِ المشاركينَ امتثلوا بشكلٍ متكرِّرٍ للحُكمِ الجماعيِّ الخاطئ[٢].

وإنَّ الامتثالَ الاجتماعيَّ، بحسبِ (آش)، إنَّما هو سلوكٌ يَكسُرُ مسارَ الفردِ للقواعدِ الاجتماعيَّةِ ومعاييرِها، ويُعبِّرُ عنه باستجاباتٍ تكونُ مشابهةً لسلوكِ الآخرينَ، أو استجاباتٍ تُحدَّدُ وفقًا لعاداتِ الجماعةِ ومعاييرِها. وحتى تتضحَ لنا التجربةُ، لا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ الامتثالَ (Conformity) في سياقِها يعدُّ نوعًا من التأثيرِ الاجتماعيِّ الذي ينطوي على تغييرٍ في الاعتقادِ أو السلوكِ ليتماشى مع اعتقادِ الجماعةِ وسلوكِها. وقد أشار عالم النفس الأمريكيُّ (فيليب زيمباردو - Philip Zimbardo) إلى أنَّ هذا التغيّرَ السلوكيَّ قد يحدثُ من غيرِ أن يتطلّبَ إذعانًا مباشرًا للجماعةِ، كما قد لا يكونُ لهُ سببٌ واضحٌ يُبرّرُهُ للملاحِظِ الخارجيِّ. وعندما نلاحظُ أنَّ جماعةً

1 - Byrd, Diane, Yasmin R. Ceacal, Jansen Felton, Carmen Nicholson, David Martin Lakendra Rhaney, Nakia McCray, and Jaceline Young. "A Modern Doll Study: Self Concept." P186–202.

2 - Cherry, Kendra, «The Asch Conformity Experiments».

من الأفرادِ يستجيبونَ بصورةٍ متكرّرةٍ ومميّزةٍ نحو موقفٍ معينٍ، فإنَّ النتيجةَ الحتميَّةَ هي أنْ يتكوَّنَ لدى هؤلاءِ الأفرادِ اتجاهٌ اجتماعيٌّ راسخٌ في هذا المسارِ، وهو ما يُمثِّلُ نوعًا من الاستجابةِ أو السلوكِ المتبنّى من الفردِ بإزاءِ الآخرِ ضمنَ ما يفرضُهُ السلوكُ الجماعيُّ[١].

تمكَّنت هذه التجربةُ أنْ تكشفَ أنَّ ما حصلَ يتجاوزُ مجرَّدَ مسايرةٍ اجتماعيَّةٍ واعيةٍ من الفردِ، بل امتثالاً غير واعٍ؛ إذ أظهرت بحوثٌ أحدثُ في علومِ النفسِ والأعصابِ والاجتماعِ أنَّ الامتثالَ يمكنُ أن يُعيدَ تكوينَ المعالجةِ الإدراكيَّةِ نفسَها، بحيثُ يتغيَّرُ ما يراهُ الفردُ تبعًا لما تقولُهُ الأغلبيَّةُ- حتّى يفقدَ قدرتَهُ على التمييزِ بينَ الصوابِ والخطأ[٢].

٣ - اختبار (ملغرام)

في أوائلِ الستينات، أُجريت تجربةُ (ستانلي ملغرام - Stanley Milgram) في الطاعةِ وفتحت أفقًا آخرَ في النقاشِ عن الحُرِّيَّةِ؛ إذ بيَّنت أنَّ الأفرادَ قد يُطيعونَ أوامرَ سُلطةٍ شرعيَّةٍ حتّى لو تعارضت مع ضميرِهم الخُلُقيِّ. في هذه التجربةِ الشهيرةِ، أُقنعَ المشاركونَ بأنَّهم يُساهمونَ في دراسةٍ عن التعلُّمِ والذاكرةِ، وطُلِبَ منهم توجيهُ صدماتٍ كهربائيَّةٍ متزايدةِ الشدَّةِ لمشاركٍ آخرَ (وهو في الواقعِ ممثّلٌ متَّفقٌ مع الباحثين) كلَّما أخطأ في الإجابةِ. المُدهش أنَّ أكثرَ من ٦٥٪ من المشاركينَ استمرُّوا حتّى أقصى مستوى من "الصدماتِ" لمجرَّدِ أنَّ الشخصَ المسؤولَ عن التجربةِ -مرتديًا معطفًا أبيضَ يرمزُ للسُّلطةِ العلميَّةِ- أمرَهُم بذلك. هنا يظهرُ كيفَ يمكنُ للسُّلطةِ أن تُعيدَ تعريفَ المسؤوليَّةِ الخُلُقيَّةِ؛ فالمشاركُ لم يَعُدْ يرى نفسَهُ فاعلاً حُرًّا بل مُجرَّدَ أداةٍ في يدِ سُلطةٍ أعلى[٣]. وقد دعمت دراساتٌ لاحقةٌ في التسعينيَّاتِ والألفيَّةِ الثانيةِ هذا التفسيرَ، مبيِّنةً أنَّ شرعنةَ السُّلطةِ وقُربَها من الفردِ، وكذلك بُعدَ الضحيَّةِ عنهُ، كلَّها عواملُ تُعزِّزُ الطاعةَ وتُقلِّلُ من مقاومةِ الفردِ.

---

١ - مسعودة سعود وجمال تالي: "الهوية الاجتماعية والامتثال الاجتماعي: قراءة سوسيولوجية في المفهوم"، ص.ص٢٠٩-٢٢٠.

2 - Minich, A., Falk, E. B., Cooper, N., Cosme, D., Chan, H.-Y., Pei, R., O'Donnell, M. B., & Cascio, C. N., Neural correlates associated with conformity in adolescent and young adult men, Developmental Cognitive Neuroscience. P 101215.

3 - Burger JM. Replicating Milgram: Would people still obey today? Am Psychol. P1-11.

مـا بينَ الامتثال للجماعـة والطاعة للسُّـلطة، تتَّضحُ إحدى الحقائق الأسـاس في علم النفس الاجتماعيِّ: ليست الحُرِّيَّةُ ممارسةً موضوعيَّةً معزولةً، بل هي فعلٌ متداخلٌ مع إدراك الفرد لانتمائه وهويَّته. تعتبر نظريَّةُ الهويَّة الاجتماعيَّة أنَّ الأفرادَ لا يرونَ أنفسَهم دائمًا ذوات مستقلَّةً، بل كثيراً ما يُعرِّفونَ أنفسَهم بوصفهم أعضاءَ في جماعة معيَّنة، وهو ما يجعلُهم يُعيدونَ ضبطَ اختياراتهم وَفقَ معايـيرَ تلائمُ تلكَ الجماعةَ. وفي هذه الحالة، يُصبحُ قرارُ الفرد «الحُرَّ» محكومًا بمدى تطابقه مع ما هو متوقَّعٌ من الجماعة، ما يظهرُ حدودَ الاستقلاليَّة الفرديَّة[1]. بل إنَّ الأبحاثَ الحديثةَ أثبتت أنَّ تذكيرَ الأفراد بما هو «شـائعٌ» قد يدفعُهم إلى سـلوكيَّات قد لا يختارونَها بمفردهم، فيما قد يُؤدِّي تذكيرُهم بما هو «مُستحسَنٌ خُلُقيًّا» إلى تعديل سلوكهم نحوَ الأفضل، غالبًا بشكل غير واعٍ. ولعلَّ أوضـحَ تجلِّيات هذه الآليَّات اليومَ تظهرُ في البيئـات الرقميَّة. فقد تحوَّلت المنصَّاتُ الاجتماعيَّةُ إلى مختـبرات ضخمة تُتيـحُ مراقبةَ كيفَ يتأثَّرُ الأفرادُ بالإشـارات المعياريَّة، كعدد الإعجابات أو المشاركات أو التصنيف في "الترند". حينَ يُشاهدُ المستخدمُ محتوىً حصَدَ ملايينَ المشاهدات أو الإعجابات، فإنَّ ذلكَ يُشكِّلُ دليلاً اجتماعيًّا ضمنيًّا على أهمِّيَّته أو صوابه. وتشير دراساتٌ واسعةُ النطاق أُجريَت على (فيسـبوك) و(X) إلى أنَّ الخوارزميَّـات لا تعكسُ تفضيلات الأفراد فقط، بل تُعيدُ إنتاجَها وتضخيمَها، فتخلُقُ ما يُعرَفُ بـ"غُرف الصَّدى"؛ حيثُ يتعرَّضُ المسـتخدمُ لمحتوى يُعزِّزُ قناعاته القائمةَ ويُقلِّلُ من تنوُّع المعلومات. في هذه البيئة، تُصبحُ حُرِّيَّةُ الفرد في التعرُّف على بدائلَ جديدة محدودةً، وتتحوَّلُ خياراتُهُ إلى استجابة مُهيكلَة مُسبَقًا ضمنَ حدود المنصَّة.[2]

خُلاصةُ القول، إنَّ علمَ النفس الاجتماعيَّ يُقدِّمُ قراءةً نقديَّةً للحُرِّيَّة باعتبارها نتاجًا لشبكة من المؤثِّرات المتداخلة: الجماعةُ تَضبطُ الإدراكَ، والسُّلطةُ تُعيدُ توزيعَ المسؤوليَّة، والهويَّةُ الجماعيَّةُ تُعيدُ تشكيلَ القرار، والخوارزميَّاتُ الرقميَّةُ تُضخِّمُ الإشارات المعياريَّة. في ضوء هذه المعطيات، لا يُمكنُ النظرُ إلى الحُرِّيَّة بوصفها حالةً من الاستقلال المُطلَق، بل عمليَّةً اجتماعيَّةً مقيَّدةً تتطلَّبُ وعيًا نقديًّا حتّى تُمارَسَ بفاعليَّة. وهذا يقودُنا مباشرةً إلى المحور الثاني الذي يتناولُ كيفَ تُترجَمُ هذه الآليَّاتُ إلى إيهامٍ نفسيٍّ بالتحرُّر في السياقات المعاصرة.

---

١ - حامد خالد: "الرأي العام وحرية التعبير"، ص ٩٧-١١٠.

٢ - جعفري نبيلة: "مؤثرو مواقع التواصل الاجتماعي: الفاعلون الجدد في قيادة الرأي العام، قراءة حول التغير في المفاهيم والأدوار"، ص ٢٢-٥٤.

ثانيًا: آليّات الإيهام النفسي بالتحرّر في السياق المُعاصر

صاغَ (جونُ ستيوارتَ ميل - John Stuart Mill)[1] -أحد أبرز مفكّري اللِّيبراليَّة الكلاسيكيَّة- تعريفًا شهيرًا للحرِّيَّة، حينَ قال: «الحرِّيَّةُ الوحيدةُ التي تستحقُّ هذا الاسمَ هي أن يسعى الإنسانُ وراءَ مصلحته الخاصَّة بطريقته الخاصَّة، ما دامَ لا يحاولُ حرمانَ الآخرينَ من حرِّيَّاتهم»

يُحاولُ (ميل)، من خلالِ هذا التَّصوُّر، تقديمَ الحرِّيَّة في صورةٍ مثاليَّةٍ تُزاوِجُ بينَ تحقيق المصلحة الفرديَّة وتجنُّب إلحاق الأذى بالآخرينَ. غيرَ أنَّ هذا الفهمَ، على بساطته الظّاهرة، ينطوي على إشكاليَّات عميقة؛ إذ يربطُ الحرِّيَّةَ بالمصلحة الفرديَّة بمعزلٍ عن السِّياق الاجتماعيِّ الذي يتكوَّنُ فيه الفردُ ويصوغُ خياراته. وهكذا تُصبحُ مصلحةُ الجماعة، في هذا المنظور، مسألةً ثانويَّةً أو غيرَ ذاتِ أهميَّة، بينما يظلُّ التَّركيزُ على الفرد وحدَهُ. تكمُنُ المشكلةُ هنا، ليسَ فقط في تهميشِ المصلحة العامَّة، بل أيضًا في تجاهُلِ الكيفيَّة التي تُبنى بها "الطَّريقةُ الخاصَّةُ" للفرد في الاختيار والتَّصرُّف، الضُّغوط والمعايير والتَّأثيرات الاجتماعيَّة التي تواجه الفرد في تشكيلِ خياراته لا يعترفُ بها التَّصوُّرُ اللِّيبراليُّ.

في عصرنا الحالي، أصبحت هذه الحرِّيَّةُ الليبرالية، إحدى القيم المركزيَّة للحداثة ومحورًا لكرامَة الفرد وقيمته. غيرَ أنَّ هذا التصوُّر لَمْ يكنْ يومًا حقيقةً مُطلَقةً، بل تشكَّلَ داخل توازنات اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة. وكما تشيرُ دراسةُ (كلاين - Clain)، فإنَّ "المثُلَ الحداثيَّةَ للحرِّيَّة" تطوَّرت مَع الوقت لتصبحَ أداةً في بناءِ النّظُم، لا مجرَّدَ مَبدَأً فلسفيٍّ مجرَّد. فَالفَردُ الذي يَظُنُّ أنَّهُ يَعيشُ في فضاءِ استقلاليَّة تامَّة، إنَّما يمارسُ حرّيَّتَهُ داخلَ أُطرٍ اجتماعيَّة وثقافيَّة مرسومةٌ سَلَفًا[2].

إنَّ أبرزَ مظاهرِ هذا التَّشكُّلِ يكمنُ فيما يُعرفُ بالإيهامِ بالاختيار عبرَ الجَماعة. فالتأثيراتُ المَعياريَّةُ والمَعلوماتيَّةُ تُبرزُ كيفَ يَعتقدُ الفردُ أنَّهُ يَختارُ بحرِّيَّة، بينما هُو في الحقيقة يعيدُ ضبط قراراته وفق ما تشيرُ إليه الأغلبيَّةُ أو ما تفرضهُ الأعرافُ. وقد بيَّنت أبحاثٌ رائدةٌ أنَّ الإشارات الثقافيَّةَ، كالرُّموزِ الدِّينيَّة أو الاجتماعيَّة أو حتّى الشَّخصيَّاتِ المؤثِّرة، تضخّمُ شعور الفردِ بأنَّهُ

---

١ - جون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣) فيلسوف واقتصادي بريطاني، يُعَدّ من أبرز ممثلي الفلسفة النفعية وأحد أعمدة الفكر الليبرالي الحديث. أسهمت مؤلفاته، مثل عن الحرية (١٨٥٩)، في ترسيخ مفهوم الحرية الفردية وحقوق الإنسان في الفكر الغربي.

2 - Olivier Clain, The Ideal of Freedom in Modern Times and Beyond: On Liberalism and Neo-liberalism, University of California, Berkeley.

يختــارُ بمطلق إرادته[1]، في حينَ أنَّ خياراته تكونُ مُوجَّهةً ســلَفًا بما يتماهى معَ هويَّةِ الجماعة، وبما يؤمنُ له القبولَ الاجتماعيَّ ويخفِّفُ عنه عقوبةَ العزلة أو الرفض.

وفي امتــداد لهذا المنطق، يظهَرُ الإيهامُ بالاختيار في السُــوق النِّيوليــبراليِّ المُعاصر. فما يقدَّمُ للفرد على أنَّهُ حرّيَّةٌ استهلاكيَّةٌ، كالتنقُّل بينَ مئات العُروض أو آلاف المُنتَجات، إنَّما هو في الغالب خياراتٌ متقاربةٌ صُمّمَت سلفًا داخلَ منظومة اقتصاديَّة واحدة. يظُنُّ المستهلكُ أنَّهُ يمارسُ استقلالَهُ في الاقتناء، لكنَّهُ في الحقيقة يكرّرُ ما رسخَتْهُ إعلاناتٌ وأعرافٌ استهلاكيَّةٌ تعيدُ إنتاجَ حاجاته ورغباته، بحيــث لا يمارسُ «حرِّيَّةً»، بل انخراطًا في بنْيَةٍ مُخطَّطَــة، تعيدُ صياغةَ أذواقه وتقيِّدُ إدراكَهُ للبدائل. وهكذا تصبحُ الحرِّيَّةُ في مجال السُّوق مجرَّدَ تداوُل لخيارات صوَريَّة، لا استقلالاً حقيقيًّا[2].

إنّ الإيهــامُ بالاختيار يؤدّي إلى تعزيز الامتثــال في فضاء الحياة الاجتماعية؛ حيثُ يجد الفردُ نفسَــهُ مقتنعًــا بأنَّهُ يتصرّفُ وفقًــا لإرادته الحرّة، بينما هــو في الحقيقة يعيدُ إنتاجَ مــا توجههُ إليه الجماعةُ أو ترسّخهُ الأعراف السائدةُ[3]. هذا النمطُ من التصّرف يعطي شعورًا نفسيًا بالاستقلال، لكنــهُ يخفي في العمق علاقة تبعيــة للجماعة التي تملكُ القدرةَ على تحديــد ما يبدو طبيعيًا أو بديهيًا. ومعَ الوقت، يتحوّلُ الامتثالُ إلى عادة راسخة تجعلُ مقاومةَ الرأي العامِّ أو الانحرافَ عن الخطاب الجمعــيِّ أمرًا بالغَ الصعوبة؛ لأنّ ثمنَهُ النفسيَّ والاجتماعيَّ قد يكونُ العزلةَ أو الرفضَ أو الوصم.

هذا الامتثالُ المتكرّرُ يفتحُ المجالَ لتآكل الوعي النقديِّ؛ إذ يفقدُ الفرد القدرةَ على التمييز بين ما ينبعُ من قناعتــه الذاتية وما يفرضهُ المحيطُ الاجتماعيُّ أو الرمــزيُّ. فالإعلاناتُ والخطاباتُ الثقافيةُ والإشــاراتُ الرقميةُ لا تُقدَّمُ بوصفهــا أوامرَ مباشرةً، بل تُزرعُ في وعــي الأفراد بوصفها خياراتٍ طبيعيةً يتبنونَها بلا مســاءلة[4]. حينها يصبحُ الســؤالُ النقديُّ غائبًــا: لماذا اخترتُ هذا

1 - Olivier Clain, The Ideal of Freedom in Modern Times and Beyond: On Liberalism and Neoliberalism, University of California, Berkeley.

2 - Yang, Yingxuan. «The Impact of Social Media on Consumer Purchasing Decisions.» Transactions on Economics Business and Management Research, vol. 8, pp. 179–187.

٣ - روبرت ب. سيالديني: التأثير الاجتماعي: من الطاعة إلى الإقناع.

4 - Abdelmajid Qourrichi (2023), Social Influence and the Formation of Social Norms, a Psychosocial Approach. P41-47.

السـلوكَ أو هذا الموقفَ؟ هل كان قرارًا شـخصيًا أم نتيجةً لتأثيرٍ معيـاريٍّ متواصلٍ؟ غيابُ هذا السؤالِ يُكرّسُ وهمَ الحريةِ، ويحوّلُ الاستقلالَ إلى مجرّدِ شعورٍ نفسيٍّ أكثرَ منهُ ممارسةً واقعيةً.

كما يُضافُ إلى ذلكَ أثرُ العولمةِ الثّقافيّةِ في تكريسِ ما سمّاهُ (بيير بورديو - Pierre Bourdieu) الهيمنةَ الرمزيّةَ. فالنّماذجُ الثّقافيّةُ التي تُسوَّقُ عالميًّا، من اللّغةِ إلى الموضةِ إلى أنماطِ الاستهلاكِ، لا تُعـرَضُ بوصفهـا إكراهاتٍ مباشرةً، بـل خياراتٍ طبيعيّـةً وحرّةً. غير أنَّ هـذه الخياراتِ، في حقيقتهـا، آليّاتٌ لإعـادةِ إنتاجِ التّبعيّةِ؛ إذ يسـعى الفردُ إلى مواكبةِ ما يُقـدَّمُ باعتباره "عالميًّا" أو "حديثًا"، فيخضعُ لآليّةِ الإقناعِ المعياريِّ التي تُوجّهُ سلوكَهُ نحوَ ما يضمنُ له القبولَ الاجتماعيَّ، حتّى وإنْ كان ذلكَ على حسابِ هُويَّتِه أو مصلحتِه، وبذلك تحرصُ مؤسساتُ السلطةِ المهميّنة على الاستمرارِ في انتاجِ الوعيِ الاجتماعيّ وفق حدودٍ مرسومةٍ مسبقًا[1].

ومفهـومَ إعادةِ الإنتاجِ الاجتماعيِّ كـما يقدِّمه (بورديو)، يعتبر إطارًا لفهـمِ كيفَ تعملُ تلك المؤسَّسـاتُ، وعلى رأسِها المدرسـةُ، في تكريسِ الهياكلِ الهرميَّةِ عبرَ الأجيالِ، من خلالِ منحِ قيمةً أكبرَ لأنماطٍ محدَّدةٍ مـن المعرفةِ والثقافةِ المرتبطةِ بالطبقاتِ المهيمنةِ. كما يرى أنَّ الأسرةَ تُشـكِّلُ محرِّكًا رئيسًـا لإعادةِ إنتاجِ التفاوتِ، عبرَ نقلِ رأسِ المالِ الثقافيِّ والماديِّ والاجتماعيِّ للأبناءِ، بمـا يتيحُ للطبقاتِ العُليا فرصًا أفضلَ في التعليمِ والارتقاءِ الاجتماعيِّ مقارنةً بالطبقاتِ الدُّنيا. وإلى جانبِ ذلكَ، يكشفُ مفهومُ «الهابيتوس» (Habitus) كيفَ تُوجِّهُ القيمُ والتصوّراتُ المكتسَـبةُ بالتنشـئةِ الاجتماعيّةِ مسـاراتِ الأفرادِ، بحيثُ يميلُ أبناءُ الطبقاتِ الدُّنيا إلى وظائفَ ومساراتٍ أقلَّ حظًّا، ما يُعيدُ إنتاجَ الفوارقِ الطبقيّةِ بشكلٍ غيرِ مرئيٍّ[2]. ويُعدّ مفهوم «الهابيتوس» من أبرزِ مفاهيم (بيير بورديو)، ويمثّل نسـقًا من التكويناتِ والميولِ والتصرفاتِ المكتسـبةِ عبر التنشئةِ الاجتماعيةِ والخبرةِ الحياتيةِ[3].

إذًا، لا شيء يُترَكُ للصدفةِ في تشكيلِ العقولِ؛ لا المناهجُ التعليميةُ، ولا البرامجُ الإعلاميةُ، ولا الخطابُ السياسي، ولا حتى تفاصيلُ تبدو هامشيةً مثلِ الرسومِ المتحركةِ أو الموسيقى. جميعُها عناصرُ متكاملةٌ تُسـهمُ في بناءِ الوعيِ الجمعـيِّ، وتُصاغُ عمدًا من قِبلِ الفاعلين الذين يمتلكون

١ - سنينة محمد، ومعيري هشام: "محاولة في فهم سوسيولوجيا الهيمنة (قراءة في فكر بيير بورديو)"، ص١١٠-١٢٠.
٢ - حسن أوزيادي: «بيير بورديو: فاضح أنساق الهيمنة الخفية»، موقع لوسات أنفو، قسم بورتريه، ٢٠٢٣/١٢/٢٠.
٣ - حسن أوزيادي: «بيير بورديو: فاضح أنساق الهيمنة الخفية»، موقع لوسات أنفو، قسم بورتريه، ٢٠٢٣/١٢/٢٠.

القرار والهيمنة الرمزية، بما يخدم إعادة إنتاج أنماط محددة من التفكير والسلوك.

تُدارُ هذه الديناميكيّاتُ التي تُحاصر الوعيَ الفرديَّ، وتُوهمُهُ بالحرِّيَّة، على كلِّ المستويات، فـلا تنحصرُ بالمجتمع المحلِّيِّ؛ إذ إنَّ العالَمَ الذي أضحى «قَريَةً كونيَّةً» يُدارُ تحتَ نظامٍ عالَميٍّ يَحكُـمُ الجميعَ، ويقومُ أيضًـا بالتلاعب النفسيِّ بالأفـراد، على عدَّة مسـتويات، ليُعزِّزَ هيمنتَهُ، ويَتمكَّنَ من خَرق وعي الفرد، وهَندسـة حُرِّيَّته بالصِّيغة المُناسبة لمصالحه. قدَّمَ (جوزيف ناي - Joseph S. Nye)، مُبتكـرُ مفهوم القوّة الناعمة، من خـلال نظريته في أوائل القرن الماضي أنَّ أخطرَ تحوّلات أدوات السـيطرة في العصر الحديث هـي القدرةُ على زَرع الرغبة في الآخر دونَ قَهره بشكلٍ مباشر، وجَعل التبعيّة تبدو خيارًا حرًّا. فالهيمنةُ لم تَعدْ تُمارَسُ بالدبّابات والطائرات، بـل بالإعجاب، والمحتوى، والرُّموز الثقافيّة، وقِيَمٍ يُجـري تصديرُها باعتبارها النماذجَ الوحيدةَ للحضارة أو الحداثة أو الحريّة[1].

وقـد عرّف (ناي) مفهوم القوة الناعمة بأنّهـا «القدرة على الحصول على ما تريد عبر الجاذبية بدلاً من الإرغام أو دفع الأموال». وهي بذلك أداة تأثير تعتمد على الشرعية والمصداقية والقدرة على الإقناع، أكثر مما تعتمد على القوة العسكرية أو الاقتصادية الصلبة.

تتحوّلُ قِيَمٌ مثلُ الحريّة وحقوق الإنسـان والمسـاواة إلى أدوات للنفوذ، ووظيفتَها تتبدّلُ: لا تَعـودُ مجرّدَ مبادئَ كونيّة تُمارَسُ بإنصاف، بل مَداخلَ ناعمةً لإعادة ترتيب العلاقات السياسـيّة والاقتصاديّـة والثقافيّة لصالـح قُوى الهيمنة العالميّة. ومن هنا، ما يبـدو تحرّرًا في الخطاب قد يُخفي في جوهرِه إعادةَ إنتاجٍ للاستعمار بطريقة أكثرَ نُعومةً، ولكن لا تَقلُّ عُمقًا أو اختراقًا.

ثالثًا: الانعكاسات النفسية - الاجتماعية للإيهام بالحُريّة

قد يُخيّلُ أنَّ الإيهامَ بالحرّيّة مسـألةٌ بسـيطةٌ، لا تتجاوزُ حدودَ السّلوك الاستهلاكيِّ أو بعضَ الخيارات اليوميّة للأفراد والجماعات. غيرَ أنَّ الحقيقةَ أعمقُ بكثير؛ إذ تُشكِّلُ هذه الاستراتيجيّاتُ إحدى أبرز أدوات صناعة الحروب، ونزعِ الإنسانيّة عن الشّعوب، وإحباط النّاس بإيهامهم أنَّهم غـيرُ قادرينَ على التّحرُّر أو مُقارعة الظّلم، وأنَّ ما يَجري إنَّما هو قدرٌ محتومٌ لا خلاصَ منهُ. إنَّ الإيهامَ بالحرّيّة حوَّلَ العالَمَ إلى جحيم، وحوَّلَ الإنسـانَ إلى كائنٍ مهزومٍ نفسـيًّا، فاقدٍ للحسِّ،

١ - جوزيف س. ناي: القوة الناعمة – وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ص١٤ –٢٠.

ومُستسلمٍ للقيودِ التي تُقدَّمُ لهُ على أنَّها اختياراتٌ حرّةٌ.

لقد شكّل الاستعمار في القرنين التَّاسعَ عشرَ والعشرينَ مختبراً مفتوحًا لآليّات الإيهام بالحرّيّة؛ حيث قدَّمت القوى الاستعماريّة وجودَها على أنَّه مشروعٌ لتحرير الشّعوب من «التَّخلّف» أو «الهمجيَّة»، بينما كانت في الحقيقة تُعيدُ تشكيلَ وعي الأفراد عبرَ أنظمة تعليم ولغة وإدارة تخدمُ مصالحَها، وتجعل لديهم القابلية للاستعمار، فالمستعمِر كما يصف الفيلسوف (مالك بن نبي)[1]، يقوم بتوفير أرضيةً مجتمعية مستعدة للاستعمار، يكون فيه الفرد قد أدمن التقليدَ والانقيادَ والخضوع[2]. هذه الممارساتُ يمكن فهمُها من خلال مفهوم التأثير المعياريِّ في علم النَّفس الاجتماعيِّ؛ إذ يُدفَعُ المستعمَرُ إلى التماهي مع قيم المستعمِر لتجنّب العزلة أو العقوبات، فيَعتقدُ أنَّه يختارُ بحرّيَّةٍ بينما هُو يُعيدُ إنتاجَ ما فُرضَ عليه.

وفي الأنظمة السّلطويّة المعاصرة، كالنموذج الأمريكي، يعادُ إنتاجُ هذا النّمط عبرَ ما يعرفُ بـ الإيهام بالتعدديّة؛ حيث تُظهرُ الدّعايةُ وجود خيارات سياسيّة متعدّدة، لكنّها في الواقع جميعًا مصمَّمةٌ ضمنَ حدودٍ ضيّقة تُعيدُ إنتاجَ شرعيّة السّلطة القائمة. فالمواطنُ الذي يشاركُ في انتخابات أو استفتاءات يظنُّ أنّه يمارسُ حقَّهُ في الاختيار، لكنَّه في الحقيقة يختارُ من بين بدائل مُحدَّدة سلفًا. هذا النّمطُ من السّلوك يفسِّرهُ علمُ النّفس الاجتماعيُّ من خلال مفهوم شرعنة السّلطة الذي يجعلُ الأفرادَ يُطيعونَ القراراتِ حتّى عندما تُناقضُ قناعاتِهم؛ لأنَّ النّظامَ نفسَهُ يَظهرُ كمرجعيّة وحيدة.[3]

إنَّ الإيهامُ بالتحرّر يؤثّرُ في تشكيل الهويةِ الفرديةِ والجماعيةِ معًا. فالفردُ الذي يجدُ أنّ قراراته دائمًا منسجمةٌ مع توقعات الجماعة، يبدأُ ببناء صورته الذاتية على أساس الامتثال لا على أساس التفرّد أو الإبداع. هذا الانسجامُ الظاهريُّ مع الجماعة يوفّرُ لهُ شعورًا بالأمان والانتماء، لكنهُ في المقابل يقيّدُ قدرتَهُ على إنتاج اتجاهات مستقلة. ومعَ تراكم هذه الديناميةِ، تتحوّلُ الجماعةُ إلى سلطةٍ معياريةٍ تُعيدُ تعريفَ ما هو صحيحٌ أو مقبولٌ، بحيثُ يغدو الخروجُ عنها بمثابةِ تهديدٍ

---

١ - مالك بن نبي (١٩٠٥ - ١٩٧٣) مفكّر جزائري وأحد أبرز أعلام الفكر الإسلامي في القرن العشرين. عُرف بجهوده في دراسة مشكلات الحضارة وتأسيس نهضة فكرية إسلامية معاصرة، حيث سعى إلى تحليل أزمات العالم الإسلامي بالاعتماد على مقاربات علم النفس والاجتماع وسُنن التاريخ، ويُعد امتدادًا معاصرًا للفكر الخلدوني.

٢ - مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

٣ - «لماذا فشلت التعددية الأميركية في خلق مسار ثالث؟» مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للهويّةِ الشخصيّةِ ذاتِها. في هذا السياقِ يصبحُ الإيهامُ بالحريةِ جزءًا من بناءِ الذاتِ، وليس مجردَ سلوكٍ عابرٍ.

ولا تقفُ آثارُ هذا الإيهامِ عند حدودِ الأفرادِ، بل تمتدُّ إلى المجالِ العامِّ ومؤسّساتِ الديموقراطيّةِ. فعندما يتبنّى المواطنونَ مواقفَ وخياراتٍ تبدو شخصيّةً، لكنّها في جوهرِها مُصمَّمةٌ سلفًا داخلَ بنى إعلاميّةٍ أو اقتصاديّةٍ أو سياسيّةٍ، فإنَّ ذلكَ يُقوِّضُ إمكانيّاتِ الخيارِ الحرِّ والمساءلةِ الحقيقيّةِ. في مثلِ هذه الحالِ، يُصبحُ الرأيُ العامُّ أكثرَ قابليّةً للتوجيهِ وأقلَّ قدرةً على المقاومةِ، لأنَّ الأفرادَ يقتنعونَ بأنَّهم يتحرّكونَ وفقَ إرادتِهم، في حين أنّ السلطةَ تتحكَّمُ في تدفّقِ المعلوماتِ إليهم، نوعيّتِها واتجاهِها، وتصوغُ وعيَهم عبرَ الإعلاناتِ والبرامجِ، بل وحتّى أوهامِ استطلاعاتِ الرأيِ التي تفتقرُ غالبًا إلى الشروطِ العلميّةِ. ولطالما أعطى الناسُ آراءَهم في قضايا لا يمتلكونَ القدرةَ على مناقشتِها بعمقٍ، وهو ما يُشكّلُ عينَ تزييفِ الوعيِ، إذ يظنُّونَ أنَّ تلكَ الآراءَ نابعةٌ منهم بالفعلِ. وهكذا تتحوّلُ الحرّيّةُ إلى أداةٍ لإعادةِ إنتاجِ الطاعةِ، ويُصبحُ الوعيُ الجمعيُّ مجالًا قابلًا للتلاعبِ، يُعيدُ إنتاجَ السلطةِ ويُكرِّسُ بنيتَها بدلَ أن يحدَّ من هيمنتِها[1].

وهم المعرفة

ومن أخطرِ هذه الانعكاساتِ ما يتعلّقُ بتكوينِ الرّأيِ العامِّ عبرَ آليّةٍ تُسمّى توهّمَ المعرفةِ. فقد أظهرت دراساتٌ حديثةٌ أنَّ الأفرادَ يُبالغونَ في تقديرِ معرفتِهم بقضايا سياسيّةٍ أو اجتماعيّةٍ لمجرّدِ تعرّضِهم المتكرّرِ لخطابٍ إعلاميٍّ موحّدٍ. هذا الوهمُ يولّدُ شعورًا زائفًا بالقدرةِ على الاختيارِ الحرِّ، بينما الحقيقةُ أنَّ إدراكَهم محدودٌ وموجَّهٌ عبرَ قنواتٍ تسيطرُ على تدفّقِ المعلوماتِ[2]. وبذلكَ، يتحوّلُ ما يبدو نقاشًا عموميًّا إلى عمليّةِ إعادةِ إنتاجٍ متكرّرةٍ للقوالبِ التي صمَّمتها السّلطةُ أو المؤسّساتُ المهيمنةُ.

إنَّ ظاهرةَ توهّمِ المعرفةِ ليست بجديدةٍ، ولكنَّ نمطَ الحياةِ الحداثوي يُغذّيها بشدّة؛ إذ تُنتِجُ

١ - هيربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول: كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟.

٢ - عبد المنعم رقاز ومحمد الأمين بوذن: "ظاهرة توهم المعرفة وعلاقتها بالرأي العام الجزائري: دراسة تحليلية لعينة من قضايا الرأي سنة ٢٠٢٢ في ضوء نظرية توهم المعرفة"، ص٦٤٨-٦٦٥.

أنماطُ العيشِ الحديثةُ ووسائلُ الإعلامِ المتدفّقةُ شعورًا زائفًا بالإحاطةِ بالمعرفة. فالإنسانُ حين يتعرّضُ بشكلٍ متكرّرٍ لمعلوماتٍ مُبسّطةٍ أو شعاراتٍ إعلاميّةٍ عن قضايا مُعقّدة، يُكوِّن انطباعًا بأنّه يملكُ معرفةً واسعةً، بينما في الحقيقةِ لا يتجاوزُ إدراكهُ سوى شذراتٍ متفرّقةٍ تُكرّس أوهامًا معرفيّةً. وقد أشارَ الباحث الألماني (سفينيا شافر- Svenja Schäfer) إلى أنّ هذا الإدراكَ يُعطي الفردَ وهمًا بامتلاكِ معرفةٍ أكبرَ مما هي عليه في الواقع؛ إذ يَميلُ الإنسانُ إلى تضخيمِ مقدارِ معرفتهِ مقارنةً معَ مواطنِ جهلِه، وغالبًا ما يَعتمدُ على هذا الانطباعِ في إصدارِ أحكامٍ ومواقفَ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ.[1]

كما يرى باحثونَ آخرون، أنّ الإعلامَ يُعَدُّ من أهمِّ مصادرِ إنتاجِ هذا الوهمِ، لكونهِ يُعيدُ صياغةَ الرأيِ العامِّ ضمنَ قوالبَ معرفيّةٍ جاهزةٍ، تُقدَّمُ للمتلقّي باعتبارها معارفَ مُحكمةً، لكنها في حقيقتِها تُخفي سطحيّةً معرفيّةً لا تُتيحُ للفردِ مساءلةَ القضايا بعمق. وبذلكَ يصبحُ الرأيُ العامُّ مُعرّضًا للانقيادِ خلفَ تصوّراتٍ جاهزةٍ تُحدِّدُها السلطةُ أو الفاعلونَ المهيمنونَ على تدفّقِ المعلومة[2].

بيَّنت دراساتٌ حديثةٌ متعددة أنَّ هذا الوهمَ يلعبُ دورًا بارزًا في تشكيلِ المواقفِ تجاهَ قضايا عالميّة، مثلَ رفضِ بعضِ الجماعاتِ تلقي لقاحات فيروس كورونا؛ حيثُ بيّنت أبحاثٌ أنَّ ارتباطَ مواقف "anti vaccination community" بما يُعرف بـ"تأثير دانينغ كروجر" –Dunning Kruger، يجعلُ الأفرادَ الأقلَّ معرفةً أكثرَ ثقةً في آرائهم الخاطئةِ مقارنةً بذوي المعرفةِ الأوسعِ[3]. وتأثيرُ «دانينغ كروجر»، يعرّف على أنه تحيُّزٌ معرفيٌّ اكتشفهُ علماءُ النفسِ (ديفيد دانينغ وجاستن كروجر- David Dunning and Justin Kruger) في عام ١٩٩٩، يُلقي الضوءَ على جانبٍ رائعٍ من السلوكِ البشريِّ. تُشيرُ هذه الظاهرةُ إلى أنَّ الأفرادَ ذوي المهاراتِ أو المعرفةِ المحدودةِ في مجالٍ معيَّنٍ، هم أكثرُ عُرضةً للمبالغةِ في تقديرِ قدراتِهم مقارنةً بأولئكَ الذينَ يتمتَّعونَ بمستوى

1 - Svenja Schäfer. Illusion of knowledge through Facebook news? Effects of snack news in a news feed on perceived knowledge, attitude strength, and willingness for discussions.

Computers in Human Behavior, Vol. 103, pp. 1-12, 2020.

٢ - مصطفى مجاهدي، برامج التلفزيون الفضائي وتأثيرها في الجمهور: شباب مدينة وهران نموذجًا.

3 - Morelock J, Michelotti A, Uyen LHM. Vaccine Hesitancy and Attitudes Toward Elite Knowledge in the United States During COVID-19.

أعلى من الخـبرةِ. يتحدّى تأثيرُ "دانينغ-كروجر" الافتراضَ التقليديَّ بـأنَّ الكفاءةَ ترتبطُ ارتباطًا مباشرًا بالثقة[1].

إنَّ أخطر ما تنتجُهُ هذه الاسـتراتيجيّاتُ هو إنسـانٌ مهزومٌ من الدّاخـلِ، فاقد للإيمان بقدرته على صناعة مصيره، ومقتنعٌ أنَّ الظّلمَ قدرٌ محتومٌ لا يمكن دفعهُ[2]. في مثلِ هذا الوضعِ، لا تعود الهيمنةُ بحاجةٍ إلى القوّةِ المباشرةِ؛ إذ يتحوّلُ الفردُ إلى سـجينٍ نفسيٍّ يقبل الطّاعةَ والامتثالَ من تلقاءِ نفسِه، معتقدًا أنّه يمارسُ حرّيّتَه.

رابعًا: مقاومة الإيهام النفسي بالحُريّة وتعزيز الوعي النقديّ

بعد المرورِ على آليّات الإيهامِ النَّفسيِّ بالتحرُّر، من الامتثال الاجتماعيِّ إلى الطاعة للسُّـلطة مرورًا بالخوارزميّات والرَّموز الثَّقافيَّة، يتَّضحُ أنَّ ما يسـمَّى حرّيَّةً فرديّة في السّياق المُعاصِر، هو في الواقـع بنيةٌ مصمَّمَـةٌ بعنايةٍ لتعيد صياغة الإدراك الفرديِّ وتضبطُ السـلوكَ بما يُلائم مصالحَ القُوى المهيمنة. وهنا يبرز السؤالُ الجوهريُّ: إذا كانت الحرّيَّةُ تمارسُ في إطارٍ من القيودِ الخفيَّة والآليّاتِ المبرمَجة، فهل يمكنُ استعادةُ مساحةٍ أوسعَ من الاستقلاليَّة؟ وكيف يمكنُ مُقاومةُ هذا الإيهامِ دونَ السـقوطِ في عزلةٍ عن المجتمع والعـالم أو في إنكارٍ لطبيعةِ الاجتماعِ البشريِّ؟ إنَّ الإجابةَ عن هذه الأسـئلة تفتح البابَ أمام البحثِ في البدائـلِ المتاحة لتعزيزِ حرِّيَّةٍ أكثر أصالةً، وهو ما يشكّلُ موضوع هذا المحور.

في هذا السِّـياقِ نسـتحضرُ (فرانز فانـون- Frantz Fanon) فيلسـوفُ التحـرّر الفكري من الاسـتعمار، الذي يعتبر أنَّ "التحـرُّرَ لا يُعطَى بل يُنتَزَعُ انتزاعًا"؛ حيـث تقوم نظريته على أنَّ أيَّ حديـث عن الحُرِّيَّة لا بُدَّ أن يَمُرَّ عبرَ وعيٍ نقديٍّ يكشـفُ بنى التسـلُّط والاسـتعمار التي تُقيِّدُ الإنسانَ. فالفَردُ لا يبلُغُ استقلالَهُ إلّا حينَ يواجهُ الشروطَ الاجتماعيَّةَ والسياسيَّةَ التي تُعيدُ صياغةَ رغباتِه وتوجِّهُ سلوكَه، بما يتوافق مع مصالحه، وليس مع الرؤى المفروضة عليه.

يتفق (بيير بورديـو- Pierre Bourdieu) مع (فانون) أنَّ التَّحـرُّرَ الحقيقيَّ لا يَكمُنُ في مُجرَّدِ

---

١ - عنود المطيري: "تأثير دانينغ كروجر: الثقة لا تكون في محلها دائمًا". موقع المرسال، ٦ حزيران ٢٠٢٤.

2 - Hickling FW, Hutchinson G. Post-colonialism and mental health: Understanding the roast breadfruit. Psychiatric Bulletin. P94-95.

إعلان الاستقلاليَّة، بل في "فَضح آليّات الهيمنة الرمزيَّة" التي تجعلُ الأفرادَ يتماهون مع ما يقيِّدُهُم[1]. هذا يَعني أنَّ بناءَ حُرِّيَّةٍ أصيلةٍ يَتطلّبُ استراتيجيات واعيةً لمُساءلة الأعراف السائدة، وكَسر الإيهام بالاختيار عبرَ تطوير أدوات فكرية تُساعدُ الفَردَ على فَهم دَور الجماعة والسُّلطة في صُنع إدراكه، ويلتقي بذلك مع (باولو فريري- Paulo Freire) في أنّ الحُرِّيَّةَ لا تَنفصلُ عن عمليَّة التَّربية النقديَّة؛ حيث يعتقد أنَّ "التعليمَ إمّا أن يكونَ أداةً للهيمنة أو فضاءً للتحرُّر". وهنا يبرز أهميةُ الدور الذي تلعبهُ المؤسَّسات التعليميَّة ضمن الفضاء العامِّ للمساهمة في بناء جيل يمارسُ المُساءلة الدائمة للقُوى التي تُحيطُ به.

إنَّ تحقيق حرِّيَّةٍ خارج دوامة الإيهام، يَتطلّبُ إعادةَ النَّظر بشجاعة في البنى الاجتماعيَّة والرمزيَّة التي تُعيدُ إنتاجَ الوَهم بالتحرُّر. فإذا كانَ الفرد يعيشُ اليومَ في شبكات مُعقَّدة من التأثيرات، فإنَّ السبيلَ إلى مَساحة أوسعَ من الاستقلاليَّة يكمُنُ في إدراك هذه التَّأثيرات، وكَسر مفعولها عبرَ النقد والوعي الذاتيِّ والجماعيِّ. وتصبحُ الحاجة ملحَّةً إلى إعادة تعريف مفهوم الحرِّيَّة من خارج النَّسق النِّيوليبراليِّ، الذي اختزلَها إلى استهلاك فرديٍّ، وتفكُّك اجتماعيٍّ، وخيارات خادعة بينَ بدائلَ صمَّمَها أفراد وجماعات لتحقق مصالحهم. إنَّ الحرِّيَّةَ ليستْ مجرَّدَ قدرة على اتخاذ القرار، بل هي قُدرةٌ على مساءلة الشُّروط التي تُنتَجُ فيها القراراتُ. ليستْ مجرَّدَ "عدم القيد"، بل قدرةٌ على الفعل من داخل وعي متحرِّر، ومتجذِّر، ومسؤول، فالحرّيّة لا تعني إطلاق عنان شهواته، بل تعني كسر جميع القيود والأغلال التي تحدّ الإنسان من الانطلاق على طريق إنسانيّته، مع تأطير دوافعه الحيوانيّة وتحديدها، كما يصفُها الشهيد (مرتضى مطهَّري)[2].

إنَّ مواجهةَ الإيهام النَّفسيِّ بالحُرِّيَّة لا تَتحقَّقُ بمجرَّد الوعي به، بل تقتضي الشروعَ في «هندسة مُضادَّة» تُبنى على جملة من الاستراتيجيات:

١ - التّحالفُ بين الفرد والجماعة ضدَّ الفردانيّة المُؤدلَجة

يقول (فرانز فانون)، «أنّ الفرد لا يستطيع أن يكون حُرًّا ما لم يتحرّر شعبه»، ذلك أنّ التّحرُّرُ لا

1 - Hickling FW, Hutchinson G. Post-colonialism and mental health: Understanding the roast breadfruit. Psychiatric Bulletin. P94-95.

٢ - "الشهيد الشيخ مرتضى مطهّري متكلّماً عن «الحرّية» و«حُكم الأكثريّة»"، موقع سرائر الإلكتروني.

يتحقّقُ في عزلةٍ فرديّة، بل في علاقةٍ جدليّةٍ بين الفردِ والمجتمعِ. فالنّظام النيوليبراليُّ أقنع الأفراد أنَّ القيمةَ تُقاسُ بالاستقلاليّة المطلقة عن الجماعة، ما يسهّل السيطرة عليه. يُعيدُ الوعيُ النقديُّ المقــاومُ يُعيدُ وصلَ الفردِ بجماعته بوصفها مجالاً للتحــرُّر المتبادل: كلُّ إنجازٍ فرديٍّ ينبغي أن يُسهمَ في الصالحِ العامِّ، وكلُّ نضالٍ جماعيٍّ يجب أن يُنبتَ أفرادًا أكثرَ كرامةً، لذلك فإنّ مواجهة النزعة الفردية، هو أيضًا عمل تحرري.

٢ - التَّحالفُ بينَ الشُّعوبِ: ضدَّ الاستعمارِ المُعَولمِ

بمــا أنَّ أنماطَ الاســتعمارِ في صيغتِها الحديثة قــد أصبحتَ مُعَولمةً، فــإنَّ المقاومةَ لا بُدَّ أن تكونَ هــي الأخرى مُعَولمةً. ويقتضي ذلكَ بناءَ شــبكاتٍ من التَّعاونِ بينَ الشُّــعوبِ التي ترزح نحن مختلف أشكال الاستعمار، ســواءٌ في المَجالاتِ الفكريَّة أم السياسيّة أم الفنّيَّة أم الثّقافيّة. إنَّ تبــادُلَ الخــبراتِ وتَنظيمَ الحواراتِ العابــرةِ للحدودِ في قضايا الحرِّيَّة يُســهمُ في بلورةِ وعيٍ جمعــيٍّ مضادٍّ يُواجهُ خطابَ الهيمنةِ، ويُعزِّزُ إمكانيّاتِ التَّحرُّرِ من أشــكالِ الخضوعِ المفروضةِ على الأفرادِ والجماعاتِ.

٣ - التعلّمُ النقديُّ: المدارسُ والجامعاتُ بوصفهما جبهاتٍ لا مصانعَ

إن المؤسسّات التعليميّة ليست مجرد هياكل لنقلِ المعرفةِ المعياريّة، بل هي على رأسِ القائمة في صنع الوعي، ويجــب العملُ على تحويلها إلى فضاءاتٍ لإنتاجِ وعيٍ نقديّ مقاومٍ. فالتّعليمُ النقديُّ يعلّمُ الطلّابَ كيف يســألونَ قبل أن يجيبوا، وكيفَ يُحاكمون ما يُقدَّمُ لهم من «حقائق»، ويبحثــون عن المعنى لا فقط عــن المعدّلِ أو الوظيفــةِ. وهذا يقتضي مناهجَ تربــطُ بين العقلِ والوجدانِ، بين الحاضرِ والجذورِ، وبين المعرفةِ والعدالةِ.

٤ - إعادةُ امتلاكِ اللغةِ وتفكيكُ القاموسِ الاستعماريِّ

اللغةُ هي أداةٌ تأسيسيّةٌ في تشكيلِ الإدراك؛ فهي ليست مجرّدَ وسيلةٍ للتواصل، بل إطارٌ معرفيّ يرســمُ حدودَ الوعي، ويمكن أن تتحوّلَ إلى وسيلةٍ للاستعمارِ كما يمكن أن تكونَ أداةً للتحرّر. وفي المجتمعات العربيّة، غالبًا ما تُعرَّف مفاهيمٌ رئيسة مثل «الحرّيّة»، و«النّجاح»، و«الحضارة»،

ضمن منطق الهيمنة الغربيّة، فيجد الأفرادُ أنفسَهم يعيشون داخل قاموسٍ مفروضٍ عليهم. وهكذا تُختـزلُ الحرّيّةُ في الانفصـالِ عن الروابطِ الاجتماعيّةِ، ويُفهمُ النجـاحُ على أنّه إنجازٌ فرديّ في اقتصادٍ تنافسيّ، بينما يختصرُ «الاختيار» في تلقّي بدائلَ جاهزةٍ تُقدَّم عبرَ منصّاتٍ رقميّة.

إنَّ استعادةَ سلطةِ التسميةِ تعني إعادةَ تعريفِ هذه المفاهيم من جذورِها، وتثبيتَ بدائلَ تحرّرُ الإنسانَ من القوالبِ الجاهزة، مثل الكرامة، والجماعة، والمعنى، لا باعتبارها مجرّدَ مصطلحات تراثيّة، بل مرتكزاتٍ رئيسةً لاستعادةِ الحرّيّة. وإنّ الانحراف في لسانِ الشباب العربيّ، أو ما يسمّى "القلـق اللغوي العربي" ليس في جوهره ظاهرةً لغويّـةً بحتة، بل هو أوّلًا ظاهرةٌ تدلّ على وجود مشـكلة سياسـيّة بقناع لغويّ. وعليه، فإنّ محاولات معالجته على أنّه إشكالٌ لغويٌّ صرف، لن تُؤتي ثمارها؛ لأنّها تُحوّل السياسيَّ والاجتماعيَّ إلى مسألةٍ لغويّةٍ خالصة، وتبحثُ لها عن حلولٍ لغويّةٍ بحتة، في حين أنّها قضيّةَ تحرّر فكريّ وفلسفيّ[1].

٥ - الوعيُ بالتكنولوجيا بوصفها بنيةَ هيمنةٍ معرفيّة

التكنولوجيا، ليست مجرّد أدوات محايدة، بل يجب التعامل معها باعتبارها بنيةً مهمتها إنتاجَ أنماطِ الإدراكِ والتفكير. فكلُّ نقرةٍ أو إعجابٍ أو محتوى يُقترَحُ عبرَ الخوارزميّاتِ يسهمُ في إعادة تشـكيل تفضيلاتِ الأفراد وتأطير آفاقِهم المعرفيّة فيما يُعرفُ بـ«فقاعاتِ التصفية». إنَّ المقاومةَ تقتضي مساءلةَ المحتوى الرقميِّ، وتجاوزَ منطقِ التوصياتِ، والانفتاحَ على مصادرَ معرفيّةٍ بديلةٍ لا تتحكمُ فيها المنصّاتُ الكبرى أو السوقُ العالميُّ.

٦ - دورُ المؤسَّساتِ الدينيَّةِ في تفتيحِ الوعي

لا يجب إغفالُ الدَّورِ الذي يُمكنُ أن تضطلعَ به المؤسَّساتُ الدينيَّةُ في بناءِ وعيٍ نقديٍّ مُقاوِم. فالدِّينُ، بوصفِه منظومةً قيميَّةً وخُلُقيَّةً، يمتلكُ قدرةً على اسـتنهاضِ الإنسـانِ ضدَّ أشكالِ الهيمنةِ النّاعمةِ كافّة، عبرَ ربطِ الحرِّيَّةِ بالمسـؤوليَّةِ والكرامةِ الإنسانيَّة، لا بالاستهلاكِ أو الفردانيَّة. وحين تفعّل المؤسَّساتُ الدينيَّةُ رسالتَها في التَّربيةِ على النَّقدِ الذَّاتيِّ ومُساءلةِ الواقعِ باستمرار، فإنَّها تستعيد دورَها باعتبارها فاعلاً رئيسًا في تحريرِ الفردِ من الأوهامِ التي تقيِّدُهُ، وفي تَحصينِ المجتمعاتِ.

١ - حسام الدين فياض: «أيديولوجيا اللغة: اللسانيات الاستعمارية نموذجًا».

الخاتمة:

يتّضح من خلال هذا البحث أنَّ مفهوم الحرِّيّة في السياق النفسي - الاجتماعي حقلٌ معقّدٌ تتداخل فيه عوامل الجماعة والسلطة والثقافة والتكنولوجيا. فقد بيَّنت المحاور السابقة كيف تُمارس استراتيجيات الإيهام بالحرية عبر آليات الامتثال والطاعة والتأثير المعياري والمعلوماتي، وصولاً إلى الخوارزميات والرموز الثقافية، بحيث يتحوّل الإدراك الفردي ذاته إلى مجال للهيمنة والتقييد. كما تطرّق البحث إلى الانعكاسات النفسية - الاجتماعية لهذه الاستراتيجيات، مبرزًا كيف تقوّض الوعي النقدي وتشرعن السلطة وتعيد إنتاج الخضوع، بل وتؤدي إلى أخطر النتائج: تحويل الإنسان إلى كائن مهزوم من الداخل، فاقدٍ للإيمان بقدرته على التغيير، وأرضية خصبة للاستعمار.

أمام هذا الواقع، لم تكتف المقالة بالكشف عن آليات الإيهام، بل اقترحت بدائل مقاومة تستند إلى بناء وعي نقدي متجذِّر، عبر إعادة امتلاك اللغة وتفكيك القاموس الاستعماري، وتفعيل التربية النقدية، وتعزيز التحالف بين الفرد والجماعة، وبين الجماعات والشعوب، وتطوير الوعي بالتكنولوجيا بوصفها بنية هيمنة معرفية، مضافًا إلى استنهاض دور المؤسسات الدينية في ترسيخ الحرية باعتبارها مسؤولية، وكرامة إنسانية. وهكذا، فإن الحرية الأصيلة لا تُعرَّف بغياب القيود فحسب، بل بقدرة الإنسان على مساءلة القوى المرئية والخفية التي تشكّل وعيه وتوجّه خياراته.

إنَّ التَّحـرُّرَ اليوم لم يعد قضيَّةَ جيوشٍ وحدود، بل قضيَّةَ وعـيٍ وذاكرةٍ ومعنًى. فإمَّا أن نكونَ في موقعِ المستهلِكِ لما ينتجْ خارجَنا، أو نتحوَّلْ إلى فاعلينَ في صياغة ذواتنا ومجتمعاتنا. إمَّا أن نمارسَ الحرّيَّةَ باعتبارها استجابةً مصمَّمةً مسبقًا، أو نخوضَها بوصفها مشروعًا نقديًّا خُلُقيًّا، يربطُ بينَ الفردِ والجماعة، وبينَ المعرفةِ والموقف، بين الفكر والمقاومة. لقد حان الوقت لننتقلَ من استهلاكِ «حرِّيَّةِ الآخرينَ» إلى صناعة حرِّيَّتِنا الخاصَّة، بكلِّ ما تحملُهُ من مسؤوليَّةٍ، واشتباكٍ، ومعاناةٍ. لأنَّنا، إنْ لم نكُنْ أحرارًا من أمَّة حرَّة، فحُرِّيَّاتُ الأُممِ عارٌ علَينا.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- جوزيف س. ناي: القوة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية). ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، تقديم: عبد العزيز عبد الرحمن الثنيان، الرياض: العبيكان للنشر، ط١، ٢٠٠٧.
- روبرت ب. سيالديني: التأثير الاجتماعي: من الطاعة إلى الإقناع. ترجمة: سامر الأيوبي، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث - مشروع كلمة، ط١، ٢٠١٠.
- مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق: دار الفكر، ٢٠١٥.
- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٩، ٢٠٠٥.
- مصطفى مجاهدي: برامج التلفزيون الفضائي وتأثيرها في الجمهور: شباب مدينة وهران نموذجًا. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١.
- نوربرت إلياس: مجتمع الأفراد، دمشق: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤.
- هيربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول: كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟ ترجمة: عبد السلام رضوان. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٣، آذار ١٩٩٩.

الدراسات والمقالات:

- آندي حجازي: «الحرية الشخصية: فطرية أم متعلمة»، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، مج٥١، العدد٥٨٦، نيسان/أبريل ٢٠١٤، ص ٢٤-٢٦.
- أوزيادي، حسن: «بيير بورديو: فاضح أنساق الهيمنة الخفية»، موقع لوسات أنفو، قسم بورتريه، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٣.
- جمال تالي، ومسعودة سعود: "الهوية الاجتماعية والامتثال الاجتماعي: قراءة سوسيولوجية في المفهوم"، مجلة المجتمع والرياضة، العدد٧، تموز ٢٠٢٤، ص٢٠٩-٢٢٠. https://asjp.cerist.dz/en/article/٢٥١٩٦٤

- حامد خالد: "الرأي العام وحرية التعبير"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مج٦، ع١، ١ أيار/مايو ٢٠١٣، ص ٩٧-١١٠.
- حسام الدين فياض: «أيديولوجيا اللغة: اللسانيات الاستعمارية نموذجًا»، مجلة البيان، ١٤ شباط/فبراير ٢٠٢٤. أُسترجع من: http://iswy.co/e2fpua
- عبد المنعم رقاز، ومحمد الأمين بوذن: «ظاهرة توهم المعرفة وعلاقتها بالرأي العام الجزائري: دراسة تحليلية لعينة من قضايا الرأي سنة ٢٠٢٢ في ضوء نظرية توهم المعرفة»، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ج٩، العدد٢، ٢٠٢٣، ص ٦٤٨-٦٦٥.
- فاروق عبدالسلام: "إشكالية مفهوم الحرية في العالم الافتراضي: دراسة تأطيرية في الفلسفة السياسية لعصر الرقمنة"، مجلة مساحات فكرية، مركز رع للدراسات الاستراتيجية، ٣١ آب/أغسطس ٢٠٢١. https://rcssegypt.com/٥١٢٣
- عنود المطـيري: "تأثير دانينغ كروجر: الثقة لا تكون في محلها دائمًا". موقع المرسـال، ٦ حزيران ٢٠٢٤. https://www.almrsal.com/post/١٤٢٥٧٤٠
- "لماذا فشلت التعددية الأميركية في خلق مسار ثالث؟" مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٢٤. https://rawabetcenter.com/archives/١٧٦٨٠٤
- مطهّري، مرتضى: «الشهيد الشيخ مرتضى مطهّري متكلّماً عن «الحرّية» و«حُكم الأكثريّة»». موقع سرائر، محرّر شعائر، ٢٠٢٣. https://saraer.org/٥٨٣/٢٣٠٠
- محمد سـنينة، وهشـام معيري: «محاولة في فهم سوسـيولوجيا الهيمنة (قراءة في فكر بيير بورديو)»، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ج١٠، العدد١، ٢٠١٧، ص ١١٠-١٢٠.
- نبيلـة جعفري: "مؤثرو مواقع التواصل الاجتماعـي: الفاعلون الجدد في قيادة الرأي العام، قراءة حول التغير في المفاهيم والأدوار"، مجلة رقمنة للدراسات الإعلامية والاتصالية، ج٢، العدد١، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٢٢، ص ٢٢-٥٤.

المراجع الأجنبية:

- Abdelmajid Qourrichi. Social Influence and the Formation of Social Norms, a Psychosocial Approach. IUSRJ International Uni-Scientific Research Journal,

4 (8), 2023, pp. 41–47.

- Berns, G. S., Chappelow, J., Zink, C. F., Pagnoni, G., Martin-Skurski, M. E., & Richards, J. "Neurobiological correlates of social conformity and independence during mental rotation." Biological Psychiatry, 58 (3), 2005, pp. 245–53.
- Burger, J. M. "Replicating Milgram: Would people still obey today?" American Psychologist, 64 (1), 2009, pp. 1–11. https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/19209958/
- Byrd, Diane, Yasmin R. Ceacal, Jansen Felton, Carmen Nicholson, David Martin Lakendra Rhaney, Nakia McCray, & Jaceline Young. "A Modern Doll Study: Self Concept." Race, Gender & Class, 24 (1–2), 2017, pp. 186–202. https://www.jstor.org/stable/26529244
- Cherry, Kendra. "The Asch Conformity Experiments." Verywell Mind, November 13, 2023. https://www.verywellmind.com/the-asch-conformity-experiments-2794996
- Chueca Del Cerro, C. "The power of social networks and social media's filter bubble in shaping polarisation: an agent-based model." Applied Network Science, 9, 69 (2024). https://doi.org/10.1007/s411093-00679-024-
- Hickling, F. W., & Hutchinson, G. "Post-colonialism and mental health: Understanding the roast breadfruit." Psychiatric Bulletin, 24 (3), 2000, pp. 94–95.
- Minich, A., Falk, E. B., Cooper, N., Cosme, D., Chan, H.-Y., Pei, R., O'Donnell, M. B., & Cascio, C. N. "Neural correlates associated with conformity in adolescent and young adult men." Developmental Cognitive Neuroscience, 60 (2023): 101215. https://doi.org/10.1016/j.dcn.2023.101215
- Morelock, J., Michelotti, A., & Uyen, L. H. M. "Vaccine Hesitancy and

Attitudes Toward Elite Knowledge in the United States During COVID-19." Critical Sociology, July 2023.

- Moscovici, S. Social Influence and Social Change. Academic Press, 1976. https://www.researchgate.net/publication/247563416_Social_influence_and_social_change
- Mark Gregory Samuels: Review: The Filter Bubble: What the Internet is Hiding from You by Eli Pariser, 2012. Published online. Available at: https://doi.org/10.5070/D482011835
- Olivier Clain. The Ideal of Freedom in Modern Times and Beyond: On Liberalism and Neoliberalism. University of California, Berkeley, 2016.
- Schäfer, Svenja. "Illusion of knowledge through Facebook news? Effects of snack news in a news feed on perceived knowledge, attitude strength, and willingness for discussions." Computers in Human Behavior, 103 (2020), pp. 1–12. https://doi.org/10.1016/j.chb.2019.08.031
- Yang, Yingxuan. "The Impact of Social Media on Consumer Purchasing Decisions." Transactions on Economics Business and Management Research, 8 (2024), pp. 179–187.